

## **الباب الثانى**

### **الزخارف**

**الفصل الأول: الزخارف النباتية**

**الفصل الثانى: الزخارف الهندسية**

**الفصل الثالث: الزخارف الكتابية**

**الفصل الرابع: الزخارف الحيوانية والأدمية**



## الباب الثاني الفصل الأول

### الزخارف النباتية:

تأثر العنصر النباتي في الزخارف الإسلامية بانصراف المسلمين عن استيعاب الطبيعة وتقليدها تقليداً صادقاً أميناً . واستخدموا لتكوين هذه الزخارف الجذع والورقة . وأكثر ما امتازت به هو التكرار والتقابل والتناظر ، وبدت عليها مسحة هندسية جامدة إن دلت على شيء فإنما تدل على مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية .

وكانت أكثر الزخارف النباتية شيوعاً في الفنون الإسلامية (الأرابيسك) وأصبحت هذه التسمية عامة إلى حد أنها كادت تطلق على جميع الزخارف النباتية الإسلامية . ولكن الحقيقة أن الأرابيسك هي الزخارف المكونة من فروع نباتية وجذوع منثنية ومتشابهة ومتتابعة وفيها رسوم محورة عن الطبيعة (Stylised) ترمز إلى الوريقات والزهور ، وتسمى أحياناً بالمروحة النخيلية (بالميت) أو نصف المروحة النخيلية .

وقد بدأت زخارف الأرابيسك تظهر في القرن الثالث الهجري (٩م) فراها في مدينة سامرا بالعراق في الزخارف الجصية التي كانت تغطي جدران هذه المدينة ، أما في مصر فكانت في العصر الطولوني . وقد تطورت زخارف الأرابيسك في العصر الفاطمي إلى أن بلغت قمة عظمتها في العالم الإسلامي منذ القرن السابع الهجري (١٣م) .

هذا وقد أتقن المسلمون غير الأرابيسك زخارف نباتية أخرى وهي أيضاً عبارة عن جذوع نباتية وأزهار وأوراق ، وبحسب كل عصر وكل إقليم كانت تختلف في دقة تقليد الطبيعة ، فمثلاً نرى في إيران منذ نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) أن الموضوعات الزخرفية النباتية التي استخدمت كانت تميل إلى تمثيل الطبيعة بصدق ، وكان هذا يرجع إلى تأثير الفن الصيني الذي تسربت بعض أساليبه إلى الفن الإسلامي

على يد المغول في إيران وبعد ذلك انتشرت من إيران إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى ، ونراها ممثلة أيضاً في بعض التحف الأخرى مثل المشكيات المصنوعة في سوريا أو مصر ، وأيضاً على الخزف والقاشاني المصنوع في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الهجرة (١٦ - ١٧م) .

ومجمل القول أن الرسوم النباتية كانت منذ البداية من العناصر الهامة بالنسبة لعناصر الزخرفة الإسلامية عامة والمنسوجات والملابس بصفة خاصة ، ولكنها كانت ترسم بطريقة إصطلاحية محورة عن الطبيعة . على أن بعض العلماء حاولوا تفسير هذا بنفور المسلمين من تقليد الخالق عز وجل ، وانصرفهم عن تمثيل الطبيعة بصدق . وفسرها البعض الآخر بالأحوال الجوية التي تسود أغلب البلاد الإسلامية ، ونتيجة لهذا لا تساعد على إبراز جمال الطبيعة ونمو الزهور والنباتات ، واختلاف الفصول كما يحدث في البلاد الغربية ، أو كما في بلاد الشرق الأقصى .

وعلى الرغم من هذا كله فتوجد على كثير من العماثر والتحف رسوم نباتية دقيقة من الممكن مقارنتها بالرسوم النباتية في عصر النهضة بأوروبا . ويكفي أن نذكر الفروع النباتية وعناقيد العنب وأوراقه ، إلى جانب ما نراه في قبة الصخرة ، وسامرا ، وعلى منبر جامع القيروان ، وفي زخارف العقود والنوافذ في ضريح السلطان قلاوون ، وفي الإيوان الرئيسي بجامع السلطان حسن ، وفي الخزف والمنسوجات والملابس التركية . وقد قسم العثمانيون الزخارف النباتية تبعاً لأسلوبها الفني وعناصرها الزخرفية إلى الطرز الآتية :

### الطرز الرومي (Romi)

وهو الاسم الذي أطلقه السلاجقة على الأناضول عندما استولوا عليها وانتزعوها من الدولة البيزنطية الرومانية في القرن الحادي عشر .

وكان أول من استعمل الزخارف المحورة من الرسوم النباتية والحيوانية هم الأتراك المقيمون في وسط آسيا ، وكانوا يطلقون عليها إصطلاحاً فنياً هو كلمة رومي ، وانتشرت هذه الزخارف بالتالي في جميع ولايات العالم الإسلامي حتى أسبانيا . وقد

استخدمها السلاجقة بكثرة إلى أن أصبحت من أهم المدارس الزخرفية في عهدهم في إيران وفي الأناضول .

ولما جاء العثمانيون استخدموا أيضاً هذا الأسلوب الزخرفي في المنسوجات والملابس وعملوا على تطويره ، إلى أن وصل إلى درجة عظيمة من الروعة والإتقان ، وأطلقوا عليه الإسم الذي أطلقه السلاجقة في الأناضول وهو (الروم) .

ولقد أطلق الأوروبيون كلمة أرابيسك (أى عربى) على هذا الأسلوب الزخرفي ، ولقد حورت فيه العناصر الزخرفية إلى درجة كبيرة بحيث أهدتها عن الأصل وأصبح من الصعب معرفتها ، ومن هنا أطلقوا عليه إسم الجنس الذي استخدمه كثيراً في فنونه التطبيقية ، وهو الجنس العربى .

مما تقدم نرى أن كلمة رومى أطلقها الأتراك على الأسلوب الزخرفي المكون من العناصر النباتية والحيوانية المحورة والذي يعرفه الأوروبيون باسم (أرابيسك) . أما زخارف مدينة ملتس (Melos) فكانت زخارفها تقتصر على الزخارف الرومية . على أن الطراز الرومى ، كان طرازاً مشتركاً مع باقى الطرز طوال العصر العثمانى .

### طراز الهاتاي (Hatayi)

وقد استخدم السلاجقة أيضاً أسلوباً زخرفياً آخر ، ورسمه عبارة عن الزهور والأوراق النباتية المحورة بالطريقة الصينية . على أن أول من اتخذت هذا أسلوباً ، هى بلاد التركستان الشرقية التى كان يطلق عليها إسم هاتاي (Hatai) .

وفى العصر العثمانى أصبح أسلوب الهاتاي من أهم أساليبهم الفنية بعد أن طوروه ، ومن هنا أطلقوا عليه إسم أول من استعمله وهم سكان (Hatai) .

وتوجد نقطتا اختلاف بين أسلوب هاتاي والأسلوب الرومى :

أولاً : تقتصر زخارف هاتاي على رسوم الزهور والأوراق النباتية ، أما الأسلوب

الرومى فعناصره عبارة عن الرسوم الحيوانية والنباتية عامة .

ثانياً : من السهل معرفة العناصر الزخرفية والمحورة فى أسلوب الهاتاي ، ولكن

يصعب معرفة هذا في الأسلوب الرومي ، وهذا لشدة تحويرها .  
وكثيراً ما نجد الأسلوبين (الرومي) و (الهاتاي) مستعملين في وقت واحد بل  
وعلى قطعة واحدة من المنسوجات .

هذا وقد استعمل العثمانيون أسلوباً واقعياً يمثل الطبيعة ، أصدق تمثيل ، بل  
يمثلها بأجمل صورها وكما يجب أن تكون ، ولذلك فهو أسلوب واقعي مثالي .  
وقد تأثر العثمانيون بهذا الأسلوب الجديد عن طريق أوروبا في عصر النهضة ،  
وأطلقوا عليه هذا الإصطلاح (Chukoufe tarzt tchitcheki) والمعنى الحرفي  
لهذا هو (طراز زخارف القاشاني الصيني) .

وقد وجد الفنانون في العصر العثماني في نباتات وزهور بلادهم مصدراً غنياً  
بأخذون منه عناصر أسلوبهم الجديد ، وزهرة القرنفل من الزهور التي فضلوها وأكثرها  
من استعمالها والورد وكرز الصنوبر وشجرة السرو واللاله وزهر الرمان وزهرة كف السبع  
وكذلك الزخارف المحورة للأوراق النباتية .

وزخارف الزهور تتكون من خمسة أجزاء رئيسية هي :

الفروع الكبيرة والفروع الصغيرة (Scrolls) والأوراق والبراعم ثم الزهور .  
ولذلك فإن الفنان يستطيع أن يخرج موضوعاً زخرفياً كاملاً ، عبارة عن زهرة واحدة  
بأجزائها الخمسة السابقة .

وتعتبر الفروع النباتية العمود الفقري للموضوع الزخرفي ، ولذلك كان الفنان  
التركي يسمي الموضوع الزخرفي بعدد الفروع المستخدمة فيه ، فمثلاً يسمى الموضوع  
الذي استعمل فيه فرعاً واحداً نباتياً باسم (Tekiplikli) أي ذي الخط الواحد . وإذا  
كان مكوناً من فرعين سمي (Techifliplikli) أي ذو الخطين . وإذا كان مكوناً من  
ثلاثة فروع سمي (Utchiplikli) أي ذو الخطوط الثلاثة .

والفنانون الأتراك أكثرها من رسم بعض الزهور في موضوعاتهم الزخرفية ،  
بالطرق المختلفة : الرومية والهاتية والطراز الواقعي ، إلى أن أصبحت هذه الزهور تمثل  
طابعاً مميزاً للزخرفة التركية عامة . على أن رسوم هذه الزهور قد ساعدت إلى حد كبير  
في تأريخ التحف التركية ، وذلك اعتماداً على الأسلوب الذي رسمت به ، ومن أهم هذه

الزهور زهرة القرنفل .

هذا ولا يعرف الموطن الأصلي على وجه التحديد لزهرة القرنفل ، والتي يسميها الأتراك (Karanfil) ، ومن المحتمل أن يكون موطنها الصين أو إيران ومن كثرة شغف الأتراك وحبهم لهذه الزهرة رسموها على كل منتجاتهم الفنية ، وإلى جانب هذا عنوا بزراعة أنواع عديدة من هذه الزهرة . فقد قامت مدينة إسطنبول في القرن الثامن عشر بزراعة أكثر من مائتي نوع منها .

### الأشجار:

ورسوم الأشجار من العناصر الهامة في الزخارف النباتية أيضاً ، وتتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هي : الساق والفروع والأوراق . وشجرة السرو وأشجار الدوم والنخيل من الأشجار التي كثر استخدامها في الزخارف التركية .

وشجرة السرو تعرف بالتركية باسم (Selvi) وهي من الأشجار التي تنزوع في الجبانات ، بحيث تغطي رانحتها النفاذة على الروائح الضارة من جثث الموتى . وهذه الشجرة ذات مقام خاص عند الأتراك فهي رمز الخلود عندهم ، وذلك لأن خضرة أوراقها تدوم طوال فصول السنة ، وبذلك فهي تعبر عن الحياة المتجددة ، الخالدة ، ومن هنا قدس الأتراك اللون الأخضر . ولهذا السبب ، أكثر الفنانون من رسم هذه الشجرة في زخرفة الأجزاء المقدسة من المباني والعمائر كالمحاريب والميضات ، ورسموها أيضاً على سجاجيد الصلاة وطرزوها على الملابس ، وفي رسمها كان يراعى الفنان دائماً أن تكون في وضع رأسي .

كذلك استعملوا رسوم شجرة الدوم التي تعرف بالتركية (Hourma agadji) على أن هذه الشجرة يرسمها الأتراك بشكل شجرة السرو ، وقد أمالت الرياح قمتها . أما أشجار النخيل فكان لها معنى ديني خالص عند الأتراك فهم يعتبرونها من أشجار الجنة ، وهي رمز الكفاف ، فالعربي الذي يعيش في الصحراء يمكنه أن يقصر قوته عليها دون غيرها ونجد رسمها في الأماكن المقدسة مثل المحاريب والمساجد والمقابر ، ونجدها أيضاً على المنسوجات وسجاجيد الصلاة .

## الثمار:

أما فى الزخارف الكلاسيكية التركية فلم يكن للثمار أثر واضح ، وأول ما ظهرت كان فى عصر زهرة اللاله (شقائىق النعمان) . على أن الثمار كانت تستعمل كعنصر ثانوى وليست كموضوع مستقل ، وغالباً ما ترسم مع أوانى الزهور ، أو أطباق الفاكهة، ويدون أوراق أو فروع .

على أن الأتراك استعملوا فى زخارف منسوجاتهم ثمار الكمشرى والخوخ والتفاح والتين والرمان وبصفة خاصة البلح ، هذا ويعتبر الأتراك البلح والرمان من فواكه الجنة .

ورقة العتر (berki itri) من الأوراق النباتية التى كثر استعمالها فى الزخارف التركية ، وكثيراً ما رسموها بالأسلوب الزخرفى المحور ، وفى كثير من الأحيان يصعب معرفتها . وهذه الورقة لها شكلان فى الزخارف التركية ، فترسم أحياناً على شكل ورقة ذات ثلاثة فصوص (Seberk) وترسم فى أحيان أخرى بخمسة فصوص (penberk) .

واستعمل الأتراك كذلك أوراق الغار والكنكر والعنب فى المنسوجات ، إلا أن الأوراق الأخيرة هذه لم تظهر بكثرة فى الزخارف التركية إلا فى القرن الثامن عشر مع أسلوب الباروك .

## طراز زهرة اللاله (شقائىق النعمان):

وهذه الزهرة تعرف فى التركية باسم (Lala) وقد كتب (Ructa Cervad) مقالا عن زهرة اللاله ، ذكر فيه أن الأتراك أخذوها عن الهولنديين بواسطة سفير النمسا فى اسطنبول فى القرن السابع عشر فى عهد السلطان محمد الثالث . غير أن هذا القول يخالف التاريخ والواقع المادى ، فيقرر التاريخ أن الهولنديين عرفوا زهرة اللاله من الأتراك فى القرن السادس عشر ، أما الواقع المادى الذى لا شك فيه ، هو أن زهرة اللاله وجدت على الخزف والنسيج والسجاد التركى ، منذ أواخر القرن الخامس عشر .

على أن اعتقاد الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر أن (Ructa) كان يعنى بما ذكره فى مقاله ، نوعاً معيناً من زهرة اللاله ، استنبته الهولنديون ، وقد أخذه عنهم الأتراك فى القرن السابع عشر .

وفى القرن الثامن عشر أكثر العثمانيون من استخدام هذه الزهرة فى الموضوعات الزخرفية وخاصة فى المنسوجات المطرزة ، خصوصاً فى عهد السلطان أحمد الثالث . إلى أن أصبح هذا العصر يعرف فى تاريخ الزخرفة التركية باسم عصر زهرة اللاله (Lala devri) . أما هواة هذه الزهرة فتباروا فى زراعة أنواع جديدة منها ، حتى قيل أنه كان يوجد أكثر من ألف نوع منها فى حدائق اسطنبول . أما بعض المخطوطات التركية فجاء فيها أسماء ثمانية وخمسين وخمسمائة نوع جديد ، لكل شكله ولونه الخاص .

على أن هناك مخطوطات رسمت فيها صور ملونة ببيان خصائص كل نوع . وأنشئت معاهد جديدة تدرس خصائص هذه الزهرة ، وطريقة زراعتها وتهجين أنواع جديدة منها . ولقد بلغ اهتمام الأتراك بهذه الزهرة فى القرن الثامن عشر ، حتى أنه بلغ ما دفع ثمناً لنوع جديد منها فى بعض الأوقات خمسمائة جنيه .

على أن اهتمام الأتراك بزهرة اللاله لم يرجع إلى جمالها فقط ، بل يرجع إلى بعض المعتقدات الدينية ، قد يكون من إسم الزهرة نفسها ، هذا أن كلمة (لاله) التركية تتكون من نفسه الحروف التى يتكون منها لفظ الجلالة (الله) ، ومن هذا أكسب التشابه فى الحروف زهرة شقائق النعمان الشرف والقدسية عند الأتراك المتمسكين بأهداب دينهم .

ولقد عظم تقدير الأتراك لهذه الزهرة ، والدلالة على ذلك أن فنانيهم رسموها فى أشكال تشبه شارتهم المميزة لدولتهم ، وهى الهلال ، وبمسجد السليمية بأدرنة وجد عمود محفور عليه زهرة اللاله فى وضع مقلوب تشبه رسم الهلال . وظلت زهرة اللاله محافظة على هذا المركز إلى أن جاء أسلوب الباروك والركوكو ، وغزا هذان الأسلوبان الفن التركى فى القرن الثامن عشر عن طريق أوروبا . إلا أن زهرة اللاله استعادت مكانتها فى القرن التاسع عشر .

وفى خلال القرن الثامن عشر فرض الطراز الأوروبى تأثيره ، كما فرض وجوده أيضاً .

على أن هناك منسوجات مطرزة منسوجة بمتحف (فكتوريا وألبرت) توضح مدى التأثير الإيطالى . ويوجد نوع من الزخارف التى يعتقد أنها ظهرت فى الشرق الأوسط ومن المحتمل أن تكون فى آسيا الصغرى وتمت فى صورة مبكرة على المنسوجات الحريرية البيزنطية الأخيرة وإطاراتها عادة ما تملأ بسيقان زهرية .  
وزخارف الدوم والخرشوف تظهر لنا أنها كانت شائعة جداً فى الحرير المنسوج والمطرز . والتى تظهر التأثير الإيطالى على الأقمشة التركية .

ولا يقل تأثير إيران على زخارف المنسوجات التركية عن تأثير إيطاليا عليها .  
ومن هذا التأثير يمكننا أن نلمس رسومات الأشجار التى على شكل المراوح وقد ملئت بالسيقان الزهرية والتى توجد منها أنواع عديدة على المنسوجات .

ومن الزخارف الشائعة عند الأتراك تلك التى تعرف باسم (رشاشة) الورد (Spray Rose) وهذه الزخرفة فى أبسط صورها تحتوى على ورقة نباتية منقوشة ولها زهرة تشبه زهرة الورد ، والساق ينتهى عادة بنوع من الخطاف . وبالإضافات المختلفة والمتعددة أحدثت تغييراً فى شكل العنصر الأساسى للنموذج لدرجة أنه أصبح من الصعب معرفته .

وتاريخ (رشاشة) الورد وأصلها لا يمكن التخمين به ، ومع ذلك فقد وجدت لها زخارف ببعض الأيسطة المصنوعة بآسيا الصغرى . وهى نموذج تركى خاص وجد بكثرة فى زخارف المنسوجات .

## الفصل الثانى

### الزخارف الهندسية:

لقد طبعت الفنون الإسلامية بطابع الرسوم الهندسية المركبة . وقد أشار العالم الفرنسى (Bourgoin) فى معرض دراستها وتحليلها إلى أنها واحدة من ثلاثة فنون عظيمة هى : الفن الإغريقى ، والفن اليابانى ، والفن العربى (الإسلامى) ، وشبهها على التوالى ، بالفصيلة الحيوانية والنباتية والمعدنية وقد ذكرت هذه الزخارف فى الفن الإسلامى بالأشكال البللورية التى توجد عليها بعض المعادن هذا بالنسبة للأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع .

وقد أصبحت الرسوم الهندسية فى الإسلام عنصراً أساسياً ، وامتازت الفنون الإسلامية بالرسوم الهندسية المركبة ذات الأشكال النجمية المتعددة الأضلاع . وقد ذاعت فى مصر الزخارف الهندسية واستخدمت لزخرفة المنسوجات والتحف الخشبية والنحاسية ، وفى المصاحف والكتب فى الصفحات الأولى المذهبة ، وفى زخارف السقوف وغير ذلك .

وقد عنى الأستاذ برجوان (Bourgoin) بتحليل الزخارف الهندسية المعقدة إلى أبسط أشكالها ودراستها ، ويتضح من دراسته أن براعة المسلمين فى الزخارف الهندسية لم يكن أساسها الموهبة فقط ، ولكنها كانت تقوم على علم واف بالهندسة العلمية ، هذا وقد قلد الغربيون هذه الرسوم لإعجابهم بها ، ويروى عن المصور الإيطالى ليوناردو دافينشى أنه كان يرسم الزخارف الهندسية الإسلامية بحيث يقضى فيها ساعات طويلة .

وقد كانت هذه الزخارف من أسرار الصناعة لأنه لم يكن عند المسلمين مراجع تتضمن نماذج الزخارف الهندسية الإسلامية الشائعة .

أما الطراز الهندسى فى الفن التركى فيتكون من العناصر الآتية : كل أنواع الخطوط المستقيمة والمائلة والمنكسرة والتموجة ، والمربع والمستطيل والمعين والمثلث ، والدوائر والعمود بأشكالها المختلفة . وأيضاً الأشكال السداسية والمثمنة

والمتمعددة الأضلاع والأطباق النجمية ، والأشكال البيضاوية فى المنسوجات المطرزة والتحف العثمانية .

وكان الأسلوب الهندسى فى معظم الأوقات لا يكون موضوعاً مستقلاً ، ولكنه يشترك فى الطرز الأخرى ، فىقوم بتحديد وتقسيم الموضوع الزخرفى إلى وحدات . وكان يوجد فى الطراز الهندسى فى الفن التركى نموذج الجامع والمباني .

ويمكن تتبع التطورات فى الرسم الهندسى على الأقمشة فى العصر العثمانى . فالنماذج فى أوائل القرن السادس عشر كانت عبارة عن أقواس مدببة وأشكال مختلفة يكون التأثير الإيطالى واضحاً فيها ، ومثل هذه النماذج مشتقة أصلاً من الشرق الأوسط ، وأنها أدخلت واستعملت فى إيطاليا ، وبعد ذلك أعيد استشرافها - كما يقول المطرزون الأتراك - وفى خلال القرن السادس عشر كانت النماذج التى أصبحت من خصائص الفن العثمانى الهلال والنجوم بالإضافة إلى رسم السحاب الصينى (تشى) ، ونموذج الثلاث دوائر كانت شارة فى العصر العثمانى وكانت من الزخارف السائدة فى ذلك العصر . وفى خلال القرن السابع عشر انتشرت أشكال ونماذج الأقواس المدببة التى بها نجوم .

ومن أنواع المنسوجات العثمانية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر بعد الهجرة ( ١٧ - ١٨م ) أقمشة من الحرير عليها كتابات فى أشرطة أفقية ومتعرجة وكانت تنسج لتكسى بها القبور والأضرحة .

وتمتاز زخارف التطريز بالنسيج المضاف بأن معظم رسومها هندسية ، مما يسهل قصه فى القطع الصغيرة من النسيج . وتعرف هذه الزخارف الهندسية الدقيقة باسم الفسيفساء (Mosaic) ، وتقوم على إضافة قطع صغيرة من أقمشة مختلفة الألوان ومقطعة بأشكال هندسية أشبه ما تكون بالقطع التى نستعملها فى اللعبة الإنجليزية المعروفة باسم (Jip Saw Puzzle) وتشبيبت هذه القطع الصغيرة على القماش المراد زخرفته فى أوضاع مختلفة بحيث ينتج عنها أشكال هندسية جميلة .

وتزاوّل سوق الخيمية (Tent Market) فى مصر هذه الطريقة فى زخرفة القماش .

وقد استخدمت أيضاً العناصر الهندسية فى زخرفة السجاجيد فى العصر العثماني، وتتكون زخارف تلك السجاجيد من أشكال هندسية تشغل جميع فراغها كالحليات المتشابكة ، صفوف الجامات البيضاوية ، أو المثلثة ويحيط بها عادة إطار من الكتابة الكوفية .

ويظهر فى السجاجيد التركية القديمة التى وصلت إلى العصر الحاضر الزخارف الهندسية أيضاً فمن مميزاتا وجود ساحة أو أرضية متوسطة فى السجادة ، ويحيط بها إطار قوامه أشرطة تختلف فى العدد والعرض بحسب نوع السجادة فالساحة تشتمل على رسم هندسى بسيط مكرر أو على أشكال صغيرة متعددة الأضلاع مكررة فى صفوف ومناطق منظمة . ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

أما المتأمل فى العماثر العثمانية فيكشف لنا عن أن جدرانها تزدان بالبلاطات الخزفية ذات الأشكال الهندسية المختلفة من نجوم ومسدسات ومثلثات .

فقد استخدمت الزخارف الهندسية لزخرفة أحد أبواب المساجد ، فالحشوات الخشبية تكون فى تجمعها أشكالاً نجمية جميلة ، وفى الحشوات المستطيلتان فى أعلى هذا الباب كتابات تقرأ فيها "الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة" .

وقد استخدمت الزخارف الهندسية فى ذلك العصر لزخرفة صناديق المصاحف المصنوعة من الخشب - ويوجد بمتحف الفن الإسلامى باسطنبول صندوق مصحف من الخشب المطعم بالعاج والصدف مسدس الأضلاع وتتوجه من أعلى قبة مضلعة ذات إثني عشر ضلعاً تجعله أشبه ما يكون بالخيمة مزخرف بالزخارف الهندسية من مثلثات ومستطيلات ومربعات من عصر السلطان سليم الأول .

ويوجد بمتحف طوبقابو جعبة سهام من الأبنوس المطعم بالعاج والصدف بها زخارف هندسية تنسب إلى أوائل القرن السابع العاشر .

على أنه ذاع استعمال الزخارف الكتابية المربعة ذات الشكل الهندسى فى العصر التركى المتأخر . ومن أمثلة هذه الزخارف ما نراه فى ضريح الشيخ صفى الدين بمدينة أردبيل ، ويتصل بهذا النوع الكتابات ذات الأشكال الهندسية المختلفة من مثلثات ومسدسات ومثمنات ودوائر ، وقد ذاع استعمالها فى العصور المتأخرة . ومن أمثلة هذه الأشكال الهندسية شكل نجمى قوامه "محمد" مكتوب ثمان مرات .

## الفصل الثالث

### الزخارف الكتابية:

لم يستخدم فن من الفنون ، الزخرفة الكتابية بقدر ما استخدمها الفن الإسلامي عامة والفن العثماني خاصة .

وفي العصر العثماني استخدم الخط العربي على العمائر المشيدة والتحف المصنوعة من المواد الأخرى ، وقد زين الفنانون العمائر والتحف بالعبارات التي تناسب المقام وأطلقوا على هذه الزخارف الخطية إسم جفتكارى (Guftkari) أى الزخرفة المتكلمة .

وقد كان الخط العربى من أوفق الخطوط للزخرفة ، وذلك لما فيه من استقامة وانبساط وتقويس وكان من السهل وصلها بالرسوم الزخرفية الأخرى بحيث يظهر فيه الجمال والإتزان والإبداع .

ولقد نجح العرب فى فرض لغتهم على معظم الأقاليم التى فتحوها ، وبذلك انتشر الخط العربى فى الإمبراطورية الإسلامية بأسرها . وقد وصل فى نحو أربعة قرون إلى جمال زخرفى لم يصل إليه خط آخر فى تاريخ الإنسان .

وقد ابتكر انمسلمون الزخارف الكتابية ، إلى أن أصبحت من بين مميزات الفنون الإسلامية عامة ، واستعملها الفنانون فى شتى الآثار الفنية . ولقد قصد بها أن تكون عنصراً زخرفياً بذاتها .

وللكتابة الزخرفية شأن عظيم فى تاريخ الفنون الإسلامية ، إذ أننا نستطيع أن نتخذها أساساً لتاريخ العمائر والتحف ذات الكتابات لأن لكل عنصر ولكل إقليم فى العالم الإسلامى أسلوبه فى الخط وزخرفته .

على أن أشرطة الكتابة الزخرفية توجد تنوعاً فى الزخرفة وتبعد ما قد ينشأ من ملل بسبب فرض عناصر زخرفية من نوع واحد سواء أكانت هندسية أم نباتية خاصة فى الفن الإسلامى .

وفى فجر الإسلام كانت أنواع الخطوط تنسب إلى المدن الإسلامية المختلفة ، مثل مكة والمدينة والكوفة وغيرها . ومن الواضح أن أهل الكوفة عنوا عناية خاصة بتجويد الخط والإبداع فى رسم الحروف بحيث كانت تميل إلى الترييع والتضليع فتكسيها طابعاً هندسياً .

وقد كانت الزخارف الكتابية فى العصر العثمانى تقوم عادة على نصوص مكتوبة بخط النسخ تقرأ فيها عبارات دينية مثل الشهادتين والصلاة على النبى ، وعبارات أخرى مثل مدح السلاطين .

وكانت الأقمشة ذات الزخارف الكتابية تعد لكى تكسى بها الكعبة الشريفة ، أو تغطى بها الأضرحة .

ويتجلى الفن العثمانى أروع ما يتجلى فى فن الخط العربى الموروث عن الأمم الإسلامية التى سبقت العثمانيين إلى مسرح التاريخ أو التى أخضعوها لسيادتهم ، ولقد ورثوا هذا الفن ناضجاً ، وساروا به إلى الأمام خطوات واسعة . فقد عرف المسلمون أنواعاً كثيرة من الخطوط العربية المدورة ، كخط النسخ والثلث والرقعة وغير ذلك من أنواع الخطوط .

وإذا كان خط النسخ والثلث قد لعبا دوراً بارزاً فى العمائر والمخطوطات العثمانية حتى القرن الثامن عشر الميلادى فإنه بعد هذا التاريخ بدأ يظهر تحت سماء اسطنبول نوع جديد نقله العثمانيون عن الإيرانيين وأصبح له بينهم مكانة ممتازة هو خط التعليق الذى يمتاز بليونته واستدارة حروفه واستلقائها .

وقد قلد العثمانيون كل ما كان معروفاً من صور الخط العربى فى ذلك الوقت فقلدوا الخط الكوفى .

على أن الخط الكوفى انتشر فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، واستعمل فى أغراض كثيرة . فاستعمل فى كتابة المصاحف وعلى قطع النقود وفى العمائر وسائر الكتابات التذكارية .

ويرجع البدء فى زخرفة الخط الكوفى فى مصر إلى نهاية القرن الثانى الهجرى . ثم انتشرت الزخارف الكوفية بعد ذلك فى أنحاء العالم الإسلامى . وكان القسم

الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية أغنى من القسم الغربي .

وقد كان الخط الكوفي فى أول الأمر بسيط بلا توزيع ولا تعقيد ولا ترابط بين الحروف ، وقد استغل الفنانون خطوطه العمودية والأفقية من الناحية الزخرفية وأبدعوا فيه ، وخلفوا نوعاً من الكتابة الكوفية الزخرفية متعددة الجوانب والصفات ومنها الخط الكوفى المورق والمشجر تخرج من أطراف حروفه سيقان نباتية دقيقة مجملة بالوريقات المختلفة الأشكال تزخرف نهايات حروفه بزخارف ورقية ذات فصوص وقد انتشر هذا النوع فى شتى أنحاء العالم الإسلامى .

ومن أنواعها الأخرى كتابات كوفية تقوم على أرضية من الزخارف النباتية المستقلة عنها . وهى عبارة عن زخارف نباتية من فروع وسيقان ووريقات لا تتصل بالكتابة ولكن تظهر كأنها تنحدر فى إتجاه واحد فتزيد من جمال الحروف .

ومن أنواع الزخارف الكتابية ، الكوفى المضفر ذو الحروف المترابطة . وقد يؤلف الفنان إطاراً أو شكلاً هندسياً يربط حروف الكلمة الواحدة أو الكلمتين . وهذا النوع أقبل عليه الفنان فى المغرب والأندلس .

وهناك نوع آخر من الزخارف الكتابية : الكوفى المربع وهو هندسى الشكل وقد تكون نشأته فى إيران ناتجة عن التأثير بالزخارف الصينية ، وقد يكون أساسه الزخرفة بالطوب فى إيران والعراق وهو وضع الطوب فى أوضاع أفقية ورأسية بحيث ينتج عنها الأشكال الهندسية . وقد ذاع استخدام مثل هذه الزخارف فى العصر التركى المتأخر .

وقد ابتكر العثمانيون الخط الجلى ، وهو يمتاز بكبر حجمه ، وعادة ما يستخدم فى الكتابة على الجدران فى العمارات ، كما أنهم أبدعوا فى اللوحات الكبيرة وكتبوا عليها إسم الجلالة وأسماء النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة ، وأبدعوا أيضاً فى عمل اللوحات الصغيرة وكتبوا فيها بخط الجلى جميع آيات من القرآن الكريم ، أو أقوالاً مأثورة عن النبى صلوات الله عليه ، أو حكماً فلسفية ثرية كانت أو شعرية .

وقد أقبل الناس على شراء اللوحات الكبيرة والصغيرة ، وتنافسوا فى الحصول

عليها إذا كانت من عمل كبار الخطاطين واستخدموا الكبير منها للمساجد ، والصغير منها للمنازل لتزيين القاعات والجدران .

ولا شك في أنه كان من شأن الإقبال على أعمال الخطاطين أن راج فنهم رواجاً عظيماً ، ونال كل التقدير .

وقد تفنن الخطاطون العثمانيون في عمل اللوحات السالفة تفناً ينتزع الإعجاب من كل من يراها ولكن بعض هؤلاء الخطاطين أسرفوا في تعقيد صور الحروف في العبارات التي نقشوها في هذه اللوحات إسرافاً جعل من الصعب قراءتها . إلا أن أصول الجمال الفني توافرت فيها . وقد كتبت الزخارف أحياناً على هيئة مسجد ، أو على هيئة رجل ملتح ، أو ترسم الأصول السبعة للعقيدة الإسلامية (التي تجمعها هذه العبارة : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن القدر خيره وشره من الله تعالى . وبالبعث بعد الموت) في شكل زورق له سبعة مجاديف يمثل كل واحد منها أصلاً من هذه الأصول - ولعل الفنان أراد من وراء رسم هذه الصورة أن يوضح أنه بواسطة هذا الزورق - زورق النجاء يستطيع الإنسان به أن يصل إلى بر السلامة والسعادة الأبدية .

وكانت الكتابة العربية تلعب دوراً هاماً في رسم الكلمات أو العبارات على هيئة طيور أو حيوانات أو فواكه أو قناديل أو مزهريات . وقد اتخذ الفنان العثماني حرف الواو أو حرف الحاء وما يشابههما في تكوين شكل زخرفي جميل .

وأما الخط المثني أو الكتابة المنعكسة أي التي تقرأ طرداً وعكساً أو الكتابة المرآتية كما يسميها العثمانيون "إينه لي" فهو نوع من الخط يكشف عن مهارة الخطاط العثماني وعبقريته إذ هو يكتب العبارة الواحدة مرتين فيمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار وبالعكس ، وهو يمزج بين حروفها بحيث يخرج من هذا المزج شكلاً زخرفياً جميلاً .

ويوجد نوع آخر من الخطوط المدورة بحيث تبدو على هيئة طائر أو حيوان أو شكل الطغراء أو سفينة نوح ، وليس من السهل في كل الأوقات أن تقرأ هذه الكتابات التي يعمل الخطاط فيها على إظهار عبقرته في الإبداع .

ولاشك أن من أجمل أمثلتها ما نراه في الفرمانات وبراءات التعيين والرتب والأوسمة التي كان يصدرها سلاطين آل عثمان .

وتعتبر "الطغراء" من صور الكتابة العربية التي أبدع الفنان العثماني في الزخرفة بها . ويعبر عنها في اللغة الفارسية بكلمة "نيشان" أما في اللغة العربية فيطلق عليها كلمة "توقيع" .

ويصف ابن خلكان الطغراء في تاريخه قائلاً : إنها الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعوت الملك الذي صدر عنه الكتاب .

ويقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى : إنه كان للطغراء رجل ينفرد بعملها فإذا كتب المنشور أخذ واحدة من تلك الطغراوات وأصقتها بالكتاب .

ويذكر المقرئ في خطه أن المنشورات كانت تطغر بالسواد بالقلم الغليظ وتتضمن إسم السلطان وألقابه .

ويقول القلقشندي أنه قد بطل استعمال الطغراء في مصر بعد إنتهاء حكم السلطان شعبان أحد سلاطين المماليك ، وذلك عندما تنبه الناس إلى إنها كانت تثبت في المنشورات فوق البسملة وهذا يعني أن إسم السلطان يسبق إسم الله وهو أمر غير جائز .

وقد استخدمت الطغراء منذ أوائل العصر العثماني ، إذ كشفت الأبحاث الأثرية عن وثيقتين تحملان توقيع "أرخان" .

وقد كان للطغراء موظف مسئول يسمى "النشانجي" وكان يعمل تحت امرته خطاط خاص يكتب الطغراء يدعى "طغراکش" (Tughrakesh) وقد ينقش النشانجي بنفسه الطغراء إذا لم يكن لديه هذا الخطاط .

وقد استخدمت الطغراء أحياناً مجردة من الزخرفة واستخدمت أحياناً أخرى مزخرفة بأزهار القرنفل أو اللاله ويزخرفة الرومي أو الهاتاي ، ومن أجمل تلك الأمثلة الوثيقة المؤرخة سنة ٩٦٣ هـ (١٥٥٥م) والتي تتضمن إسم السلطان سليمان القانوني - ويفخر بعبازتها متحف طوبقابو سراي باسطنبول .

وقد أعطانا الفن العثماني صوراً من الخط العربي تفيض بالجمال الفني والأناقة .

وقد انتقل الفنان العثماني إلى مرحلة الابتكار التي إستطاع فيها أن يعطينا الأشكال الجديدة للكتابة العربية والتي ظهرت لأول مرة في العصر العثماني من أهمها الخط الديواني ، وخط السياقت .

وقد استخدم الخط الديواني في كتابة فرمانات والمنشورات في دواوين الحكومة - أما خط السياقت فاستخدم في كتابة الأحجية .

وبعد فإن فن الخط لم ينل عند أمة من الأمم من العناية والتقدير بقدر ما ناله عند المسلمين عامة والعثمانيين خاصة .

وليس هناك فن استخدم الخط في زخرفة المباني الدينية والدينية ، بل كل ما يمكن أن تقع عليه العين ، بقدر ما استخدمه الفن الإسلامي ، وقد كان الخط في هذا الفن قاسماً مشتركاً في كل ما أخرجته أيدي العثمانيين من عمائر مشيدة أو تحف مصنوعة من الخزف أو الخشب أو المعدن أو القماش إذ زينوا هذه وتلك بعبارات مختلفة تناسب المقام ، وأطلقوا على هذه الزخارف الكتابية باسم جفتكاري (Guftkari) أي الزخرفة المتكلمة - كما سبق وأشرنا .

وقد اتخذ السلاطين والوزراء العثمانيون من فن الخط العربي هواية لهم ، يزاولونه في أوقات فراغهم ، ونزلوا إلى هذا الميدان يجمعون المصاحف ، وقد أسهموا في نسخ المصحف الشريف بأيديهم طلباً للثواب من الله .

والواقع أن الأتراك العثمانيين نظروا إلى فن الخط نظرتهم إلى التكوين الزخرفي الذي يشيع الجمال الفني في كل شيء يزخره ، فلا يزال للخط العربي عندهم قداسته في نفوسهم لصلته الوثيقة بكتابة كلام الله ، ولا تزال عبارة "ما شاء الله" المكتوبة بخط عربي جميل لها مكانة سامية في قلوبهم ، ولا تزال البسملة تعلق في سياراتهم .

مما سبق يتضح لنا أن مصر الإسلامية عرفت تراثاً له قيمة هو فن الخط ، وكان لرجاله قدر فني . وكان في طليعة الفنون الإسلامية . فقد كان الولاية

والأمراء يدفعون عن طيب خاطر الهبات الطائلة للخطاطين المهرة لكتابة آيات القرآن الكريم .  
وفى دار الكتب المصرية ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة مجموعة فريدة من المصاحف والمخطوطات وغيرها من التحف الإسلامية التى تزخرف بالزخارف الكتابية الجميلة .



## الفصل الرابع

### الزخارف الحيوانية والأدمية :

كان من أهم الدوافع إلى رسم الحيوان فى الفنون الإسلامية الفراغ والرغبة فى ملء المساحات بالزخارف . وقد استخدم المسلمون فى زخارفهم الأسد والفهد والفيل والغزال والأرنب والطيور الصغيرة بأنواعها .

ولقد لوحظ أن رسوم الحيوان والطيور التى استخدمها الفنانون المسلمون كانت من الحيوانات التى تصاد أو تستعمل فى الصيد .

وقد أخذ المسلمون عن فنون الشرق الأقصى رسوم حيوانات خرافية ومركبة . وأخذوا عن الصين (التنين) من حيث أنه رسم زخرفى فقط .

وكان (التنين) بالنسبة للصين من شارات الملك . وفى الشرق الأقصى كانت العنقاء ترمز للإمبراطورية . وفى الإسلام لا ترمز لشيء . وقد انتشر رسم الفرس ذى الوجه الأدمى فى الرسوم الإسلامية . وكذلك رسم الفنانون فى الإسلام الطيور الصغيرة ذات الوجه الأدمى . وكذلك الأفاعى والحيات والحيوانات المجنحة .

وقد رسم إنسان ما قبل التاريخ صور الحيوانات التى يصطادها ويعيش معها على جدران كهفه ، ولا نعرف على وجه التحديد هل كان الغرض منها الزخرفة والزينة أم مجرد رموز وطلاسم لجلب النفع وإتقاء الشر .

وقد اعتبر الإنسان البدائى بعض الحيوانات أصل سلالته التى انحدر منها ، واختصت كل قبيلة بحيوان خاص .

على أن الأجيال قد توارثت هذه العقائد حتى عصر الحضارات القديمة .

ولقد اشتهرت الفنون القديمة فى آسيا كلها ، باستعمال رسوم الحيوان فى زخارفها . على أن الفن البيزنطى أخذ قسطاً وافراً من رسوم الحيوان .

وقد كانت رسوم الحيوان فى الزخارف الإسلامية الأولى من حيث القوة وعنف المظهر تشبه رسوم العصر الساسانى ، وكذلك فى إتباع التماثل والتوازن والتقابل فى رسم الحيوانات والطيور متواجبة أو متدايرة ، ومتتابعة فى أسرطة من الزخرفة .

وقد وفق الفنانون المسلمون فى تمثيل مناظر العراك بين الحيوانات أو انقراض بعضها على بعض . ولم يهتم الفنانون المسلمون فى رسم الحيوان نقلاً صادقاً إلا بعد تطور الفنون .

ولم تكن رسوم الحيوان فى الفن الإسلامى مقصودة لذاتها إلا نادراً ، ولكن فى معظم الأحيان كانت تمثل موضوعاً زخرفياً سواء أكان محصوراً فى دوائر أو أشرطة أو فى مناطق هندسية .

وقد كان للأتراك حيوانات ترمز للجهات الأصلية الأربعة هى :

الخنزير البرى ويمثل الجهة الشمالية ، والنسر ويرمز للجنوب ، والكبش ويرمز للجهة الشرقية والكلب ويرمز للجهة الغربية .

ولقد كان الأتراك المقيمون فى شمال آسيا يكثرون من استعمال الرسوم الحيوانية المحورة تحويراً كبيراً ، وكان من الصعب فى أحيان كثيرة تمييزها .

وكان الأتراك العثمانيون مسلمين متعصبين لدينهم ، فقد كرهوا رسوم عهد الوثنية ، وعلى الرغم من هذا لم يتخلصوا من تأثيرها بصفة كلية ، ولكنهم حوروها لدرجة أنه توجد صعوبة فى الإستدلال عليها ، وأصبحت زخارف مجردة دخلت فى حيز الطراز الرومى (الأرايسك) .

على أن العثمانيين استعملوا رسوم الحيوان بصورها الطبيعية إلى حد كبير خصوصاً حيوانات الصيد ، وخير مثال لذلك المنسوجات المطرزة فى الربع الأول من القرن السادس عشر .

وقد وجدت الرسوم الحيوانية ماثلة على الأوانى الخزفية فى العصر العثمانى . وفى متحف فكتوريا وألبرت بلندن توجد قنية من الخزف العثمانى من صناعة إزنيق عليها زخارف حيوانية محورة عن الطبيعة .

وبالمتحف البريطالى توجد قنينة من الخزف من صناعة آسيا الصغرى وعليها زخارف حيوانية خرافية من القرن العاشر الهجرى (١٦م) .

ويوجد طبق من الخزف التركى به رسوم حيوانية قوامها زخارف لحيوانات خرافية . ويرجع هذا الطبق إلى القرن (١٧م) .

أما سجاجيد القرن الخامس عشر فقد زخرت برسوم الحيوان والطيور ولكنها رسوم بعيدة عن الطبيعة وقوامها خطوط مستقيمة تجعلها مجموعة من الأضلاع والزوايا . وفي هذه القطعة منطقتان في كل منهما رسم لحيوانين خرافيين يتعاركان . وهي محفوظة في القسم الإسلامي في متاحف برلين .

### الرسوم الأدمية :

نظرة إلى تاريخ الفنون الإسلامية تقنعنا بأن القوم كانوا في كثير من الأحيان لا يكثرثون بتحريم الرسوم الأدمية ، وإن هذا التهاون كان يحدث في شتى أقاليم الإمبراطورية الإسلامية ، فزدهر فن الرسوم الأدمية سواء أكان تصويراً أو مخطوطات أو رسماً ، ولاسيما في الأقاليم التي كانت لها تقاليد فنية عظيمة في التصوير كإيران وفي البلاد التي تأثرت بها في هذا الصدد وخضعت في بعض حقبات التاريخ لنفوذها الثقافي كالهند وتركيا ومصر . ومن هنا ظهرت الرسوم الأدمية لبعض الفنانين في العصر العثماني . مع العلم بأن الأحاديث كانت تحرم تصوير الكائنات الحية . وما يجدر ذكره أن بعض المخطوطات التي فيها صور آدمية عمل بعض المتعصبين على تشويهها .

ولكن توجد بعض المخطوطات من العصر العثماني نذكر منها مخطوطة مصورة من المدرسة التركية القرن (١٦م) . فبمتحف المتروبوليتان صورة تركية لأشخاص بملابسهم التركية المميزة والعمامة الكبيرة التي تظهر بوضوح في هذه الصورة . وفي مخطوطة أخرى تظهر السيدات العثمانيات بملابسهن المميزة . وفي المكتبة الأهلية بباريس صورة للسلطان سليمان القانوني محطياً سهوة جواده ، وتعتبر هذه الصورة مثلاً رائعاً فذاً لرسوم الأشخاص في الفن التركي .

وتوجد رسوم كثيرة للأشخاص في ذلك العصر للفنان "لوني" وغيره من الفنانين وقد رسم الفنان "لوني" النساء بتفصيلات ملابسهن بدقة وإتقان . ومعظم هذه الرسوم محفوظة بمتحف طرباقابو و "بالبومات" السلاطين العثمانيين . وقد كانت الرسوم الأدمية تزخر بالآنية الخزفية . فمن أظهر مميزات خزف

كوتاهية ، هو رسوم الأشخاص وخاصة رسوم النساء بملاسهن الوطنية ، ورسوم الرجال بزيهم الوطنى كذلك ، وعمامتهم الكبيرة والشارب التركى التقليدى .  
ووجدت الرسوم الأدمية بقلّة على المنسوجات المطرزة فى العصر العثمانى ، وتختلف هذه الرسوم باختلاف المراكز الصناعية ، والعصر الذى صنعت فيه ، هذا من ناحية الأسلوب التصويرى أو من ناحية الزى ، فرسوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، على النسيج تشبه إلى حد كبير رسوم الأشخاص فى إيران فى العصر الصفوى بالنسبة للسحنة والذى ، خصوصاً من ناحية العمامة الكبيرة التى تغطى الرأس ، وغالباً ما تكون رسوماً نصفية (Bust) . أما القرن الثامن عشر فقد كانت الرسوم المطرزة أكثر بداءة وتمثل الطائفة الأرمينية ، وكانت رسوماً كاملة ، ولذلك اعتبرت وثيقة مؤرخة للزى العثمانى فى مدينة كوتاهية حيث تسكن طوائف الأرمن .